

أسطورة ياسر عرفات

توفيق الطيراوي*

مع ياسر عرفات في حصار المقاطعة

لم يكن أبو عمار شخصاً عادياً، ولا قائداً عادياً، ولا مناضلاً عادياً، ولا إنساناً عادياً، ولا عسكرياً عادياً، ولا رئيساً عادياً، وإنما كان هؤلاء جميعاً ومعاً بشكل استثنائي: هو القائد المختلف... المنتبه المتنبه النبيه دوماً.

وكل من جالس أبو عمار، ولو مرة واحدة، له قصة معه فيها من المعاني والعبر ما يستحق التمحيص في شخصية جامعة قد تختلف معها، لكنك لا تختلف عليها، فهو القائد المدرسة والنموذج، وفيه من البساطة والعمق معاً ما يجعلك ترتبك في حضوره ارتباك التلميذ أمام أستاذه ومعلمه، وهو الأب الحاني والحازم في آن معاً.

تعرفت إليه في أوائل سبعينيات القرن الماضي عندما كنت عضواً في الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين، واستمرت معرفتي به في مرحلة الانخراط في العمل الثوري وحركة "فتح" تحديداً، وفي أجهزة أمن الثورة الفلسطينية بقيادة القائد الراحل صلاح خلف (أبو إياد).

لكن تجربة حصار المقاطعة في رام الله تُعدّ من التجارب الدقيقة والحساسة، إذ كنت محاصراً مع الرمز ياسر عرفات، وعلى درجة من القرب والالتصاق اليومي بقائد تفوق رمزيته حدّها لتصير بحجم فلسطين وأكثر؛ كيف لا وهو الاسم الحركي لبلدنا الذي وضعه أبو عمار، بفعله وفعل إخوته من القادة العظام في الثورة الفلسطينية، على خريطة العالم السياسية كرقم لا يمكن القفز فوقه أو المرور عليه.

الهدف... أبو عمار

الدبابات الإسرائيلية تتقدم في اتجاه رام الله... الدبابات الإسرائيلية وصلت إلى

* لواء، وعضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح"، والمستشار الأمني السابق للرئيس الراحل ياسر عرفات، برتبة وزير.

جوار مكتب أبو علي مصطفى... أسمع هذه الرسائل على جهاز اللاسلكي فأقول لإراديًا بصوت مرتفع بيني وبين نفسي: أبو عمار هو الهدف. ويدور شريط المكان كفيلم في دماغي. الدبابات وصلت إلى مكتب أبو علي مصطفى، يعني أنها على بعد عشرات الأمتار فقط من المقاطعة حيث مقر الرئيس ياسر عرفات، وفيها مكتبه وفيها ينام.

توجهت فوراً إلى المقاطعة وأيقظت الرئيس ياسر عرفات من نومه، وأخبرته أن بعض المطلوبين من قوات الاحتلال الإسرائيلي موجودون في مكتبي، وأن ثمة آخرين في سجن الشرطة المحاذي لمكتبي حيث يوجد أربعة من عناصر الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذين نؤويهم كي لا يعتقلهم أو تقتلهم قوات الاحتلال لقيامهم بقتل وزير السياحة الإسرائيلي رحبعام زئيفي.

وقف أبو عمار متكئاً على باب الغرفة وعيناه كعيني صقر يستمع بإصغاء شديد، فأكملت حديثي قائلاً: اللواء الشوبكي وأحمد سعدات والأربعة... ماذا نعمل بهم؟ وأكملت: إذا دخل جنود الاحتلال إلى المقاطعة واقتحموها سيكون هؤلاء هدفاً مباشراً لهم، فماذا أعمل بشأنهم؟ فردّ موجهاً أمراً عسكرياً: أحضرهم فوراً إلى مقري هنا، وكرر: فوراً فوراً.

تحركت فوراً مع العميد سامح عبد المجيد ومجموعة من حرس الرئيس من الأبواب الخلفية وأحضرناهم إلى مقر الرئيس ياسر عرفات قبل دقائق من وصول القوات الإسرائيلية إلى المقاطعة والبدء باقتحامها. وبعد اشتباكات شديدة دخلت الدبابات إلى داخل أسوار المقاطعة وتوجه الجنود فوراً إلى مكتبي وإلى سجن الشرطة، لكنهم لم يجدوا مرادهم، فقد أجلينا الإخوة الشوبكي وسعدات وعناصر الجبهة الشعبية الأربعة من مكتبي ومن سجن الشرطة، فلم يجد جنود الاحتلال المتغطرسون شيئاً هناك سوى بعض الأوراق.

القائد الإنسان

كان أحد حراس أبو عمار الشخصيين أصيب خلال اشتباك مع قوات الاحتلال المحاصرة للمكان خلال اقتحام المقاطعة، وبقينا ننتظر سيارة إسعاف كي نقله، لكن قوات الاحتلال عطّلت وصولها عدة ساعات، فتوجه أبو عمار معنا إلى مدخل مبنى المقاطعة حيث ينتظر حارسه الجريح سيارة الإسعاف ممدداً على الحماله، وأمسك بيده وصار يرفع من معنوياته بعدما اطمأن إلى أن الإسعافات الأولية التي قُدمت له استطاعت وقف نزيف جرحه، وبقي معه إلى أن سمحت قوات الاحتلال لسيارة الإسعاف بالدخول، وودعه قائلاً: بالسلامة يا حبيبي، مستنينك بعد الشفاء إن شاء الله.

تمت محاصرة ياسر عرفات رسمياً في المقاطعة، وصار يستقبل أحمد سعدات واللواء الشوبكي والشباب المطلوبين ويطمئن عليهم يومياً. ومن أجل الحفاظ على حياتهم وحریتهم برزت فكرة حفر نفق تحت الأرض من داخل المقاطعة وتهريب المطلوبين إلى خارجها. وقام الرئيس ياسر عرفات شخصياً باستطلاع المنطقة وتقدير المسافة المطلوب حفرها وموقع الحفر وطريقة وكيفية الخروج والدخول من النفق. كان يتابع الأمر بالتفصيل، إلا إن الفكرة ألغيت في اللحظات الأخيرة، ومع هذا لم ينقطع يوماً عن تفقد الأكياس والبراميل المملأ بالرمل لحماية الموقع في حال هجوم العدو الإسرائيلي على المبنى المحاصر، وذلك بالقدر

ذاته الذي لم ينقطع فيه عن تفقد العناصر والضباط والمحاصرين معه في المقاطعة ورفع معنوياتهم. لم يأكل يوماً قبل التأكد من أن الجميع تناولوا طعامهم البسيط ليأكل بعدهم مما تبقى.

الشقيقة

تناهى إلى مسامع الرئيس ياسر عرفات أنني أعاني دواراً شديداً واستفراًغاً وألماً شديداً بسبب مرض الشقيقة [الصداع النصفي] الذي يصيبني بين الفينة والأخرى، فأتى على الفور وطلب من مساعديه البحث عن غرفة صغيرة مظلمة بلا نوافذ. وجدوا مخزناً صغيراً بهذه المواصفات مساحته ثلاثة أمتار مربعة فقط، فطلب إخلاءه باستثناء خزانة معلقة على الحائط وقال لي: "يا توفيق بتنام هنا" ومن دون ضوء. وفعلاً صرت أنام في هذه الغرفة وحدي. وعندما بدأت الجرافات بهدم الجدران، جاء مع مرافقيه وطلب منهم إزالة الخزانة المثبتة على الحائط كي لا تقع عليّ من الارتجاج الذي تحدثه عمليات الهدم. وكنت أحس به مرات عديدة يعودني وأنا في حالة الألم الشديد، وأسمع صوته يسأل عني وعن وضعي فأشعر بأبوة حقيقية.

اللاسلكي وسيلة الاتصال الوحيدة

شدت قوات الاحتلال الحصار على الرئيس ياسر عرفات وقطعت وسائل الاتصال كلها من الهواتف الأرضية والخليوية بعد تركيب أجهزة تشويش متطورة لمنعه من الاتصال بالعالم الخارجي، وذلك كوسيلة ضغط لحمله على الاستسلام وكسر إرادته وكسر إرادة الشعب الفلسطيني. ولم نجد إلا جهاز اللاسلكي الذي كان بحيازتي والمربوط مع غزة من خلال أبراج وُضعت في منطقة الخليل، كي نتواصل من خلاله مع اللواء أمين الهندي قائد جهاز الاستخبارات العامة الفلسطينية آنذاك الذي كان يتلقى التعليمات من الرئيس ياسر عرفات عبر هذا الجهاز ويتحرك للتواصل مع العالم ومع المسؤولين الفلسطينيين خارج المقاطعة. وفعلاً كان عرفات يحرك العالم من خلال هذا الجهاز.

كان الرئيس حزيناً، وخصوصاً عندما تمت المؤامرة عليه في القمة العربية في بيروت [٢٠٠٢] وشُطبت كلمته التي كان مقرراً أن يلقيها من المقاطعة بواسطة الهاتف. وكان حزيناً كذلك لأن أحداً من الزعماء العرب لم يتصل به ولا مرة واحدة للاطمئنان عليه، وأنهم لم يفعلوا شيئاً يُذكر لفك الحصار عنه، بينما اتصل به الرئيس المصري آنذاك حسني مبارك ثلاث مرات في ثلاثة أيام كي يطلب منه تعيين وزير في الحكومة الفلسطينية يريده مبارك. أدرك الرئيس ياسر عرفات آنذاك أن العديد من الزعماء العرب وبعض القيادات الفلسطينية يسعون لرفع الغطاء عنه لإنهاءه سياسياً.

في المقاطعة... عرس ودمعتان

شاءت الأقدار في هذه الأوضاع العصيبة أن أفقد زوجتي التي كانت تتعالج في القاهرة

بسبب خطأ طبي، وتوفيت خارج الوطن، وترك ذلك جرحاً عميقاً في قلبي، فما كان من أبو عمار الأب والإنسان القائد إلا أن فتح بيت عزاء لها في المقاطعة لتقبل العزاء بوفاتها، وعمل بحسب العادات الفلسطينية والأصول والأعراف المتبعة، وأعدّ غداء متواضعاً عن روحها في اليوم الثالث لوفاتها لكل من كان موجوداً في المقاطعة تحت الحصار.

بعد عام تقريباً من وفاة زوجتي، وكان الوضع في حصار المقاطعة صعباً للغاية، جاء شاب يطلب يد ابنتي وأنا لا أستطيع أبداً مغادرة المقاطعة إذ كنت مطلوباً من قوات الاحتلال، وعندما علم أبو عمار بالأمر، أمر بالقيام بالإجراءات المطلوبة كلها لعقد القران في مكتبه، وقال من يرد الزواج بابنة توفيق فليطلبها مني فأنا أخوه الكبير و"البننت بنتي"، وسأكون شاهداً على وثيقة الزواج. فعلاً حدث ذلك بوجود الشاهدين صائب عريقات وأحمد الطيبي.

فن القيادة

كان أبو عمار دائم المشي في غرفة مكتبه التي تحتوي على مكتب وطاولة للاجتماعات ومجموعة من الكراسي، وكان يدور مشياً حول الطاولة، لا يتعب ولا يكل ولا يمل كأنه قائد كتيبة المشائين. كنا نتناوب أنا والحاج إسماعيل جبر ورمزي خوري وفيصل أبو شرح ونبيل أبو ردينة وبعض العاملين في مكتبه، ومنهم أشرف دبور، على الوجود في مكتبه لأننا لا نستطيع البقاء جميعاً طوال الوقت، فهو يعمل بنشاط منقطع النظير، ويتابع الصحافة المكتوبة والمسموعة والمرئية، بعدما تم السماح بوصول الكهرباء.

في إحدى مناوباتي وكنت وحدي معه في المكتب، نظر إليّ وقد أسندت كتفي إلى الحائط قرب الباب وسألني: أنت قائد؟ فأجبته مبتسماً: كيف إنت شايف يا ختيار؟ فاسترسل قائلاً: سأعلمك فن القيادة، وأكمل حديثه قائلاً: يا توفيق إذا كنت مع بعض إخوتك تسيرون هرولة يعني مسرعين، وتعتّر أحدهم وسقط على الأرض فإياك أن تهمله وتكمل مسيرتك، انظر إليه، فإذا كان قد مد يده إليك لتساعده على القيام من جديد فأمسك بيده وساعده على ذلك فوراً، لأنك إن تركته فهذه نذالة وإن ساعدته فهذا وفاء، لكن إن نظرت إليه وكان غير مكترث لإكمال المسيرة ولم يمد يده لتساعده على القيام من جديد فاتركه في مكانه وأكمل المسيرة وتابع خطاك إلى الأمام. يا توفيق، يا ما وقع بعض إخواني ومديت لهم أيدي وأصبحوا قادة ودخلوا التاريخ، وآخرون لم ينهضوا عن الأرض ونسيهم التاريخ. وتابع كلامه قائلاً: هل فهمت؟ فأجبته: طبعاً فهمت بارك الله فيك، فأكمل قائلاً: يا توفيق، القيادة تضحية وفداء ونكران للذات ووفاء وحب وعطاء، وهذه الأشياء كلها تأتي فقط بعد الإيمان بالله أولاً، وبشعبك وقضيتك وبأهدافك التي قد تتعدل نظراً للظروف وموازين القوى، لكنها لا تسقط ولا تنتهي. ثانياً، أنت بهذه الصفات تجعل من معك ومن سيأتي بعدك يؤمنون بالثواب ويصونونها بالدم المقدس، الكلام ده حطه في راسك ولا تنساه أبداً. فسألته: وهل بعد عمر طويل يا ريس جعلت من بعدك يؤمن بهذا؟ فنظر إليّ بحزن شديد وقال: أتمنى أتمنى، وبعدين البركة فيكم وفي الأجيال.

لم يكن أبو عمار رئيساً فحسب، بل كان قائداً وزعيماً عربياً ورمزاً لشعبنا الفلسطيني وللأحرار والثوار في العالم.

كان مفرداً بصيغة الجمع، مانعاً وجامعاً، لأنه هو المختلف باقتدار: من أروقة التفاوض إلى سواتر النار؛ من أول "الشرد" إلى آخر "البرد"؛ من جبهة السياسة إلى جبهة المعركة. عاش كريماً ومات عزيزاً... شهيداً شهيداً شهيداً.

إضاءات من داخل الحصار

- طوال فترة الحصار كان أبو عمار يضع رشاش الـ "بريتا" خاصته على طاولة مكتبه، ومسدس الـ "سميث" على خصره طوال اليوم وتحت مخدته في أثناء النوم، وكان ينام على الأرض في مكتبه وينام إلى جانبه في المكتب نبيل أبو ردينة.
- كان أبو عمار مواظباً على الصلاة، وفي يوم الجمعة الأول بعد الحصار بحث عمّن يستطيع أن يكون إمام الجمعة، ووقع اختياره عليّ، فطلب مني أن أحضر خطبة الجمعة وأكون إماماً للصلاة وكان ذلك. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الرواية الفلسطينية الكاملة للمفاوضات من أوسلو إلى خريطة الطريق

أحمد قريع (أبو علاء)

١

مفاوضات أوسلو

١٩٩٣

٥٣١ صفحة ١٥ دولاراً (تجليداً عادياً)

٢٠ دولاراً (تجليداً فنياً)

٢

مفاوضات كامب ديفيد

(طابا واستوكهولم)

١٩٩٥ - ٢٠٠٠

٥٠٥ صفحات ١٥ دولاراً (تجليداً عادياً)

٢٠ دولاراً (تجليداً فنياً)